﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾

[التّوبة: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ كونِهِ لا عهدَ لِلمُشركينَ بما في صدورِهِم مِن ضغينةٍ وحقدٍ على المؤمنين

لمّا أنكرَ سبحانَهُ أن يكونَ للمُشركينَ غيرِ المُستَثنَينَ عهدٌ واستبعدَهُ أكّدَ الإنكارَ والاستبعادَ تمهيدًا لبيانِ العلّةِ المُوجِبةِ للإنكارِ، بالإخبارِ عَن دخائلِهِم وما يبطنونَهُ[1]، فهُم "يخدعونَكُم بكلامِهِم المَعسولِ، وقلوبُهُم مُنطويَةٌ على كراهيتِكُم، وأكثرُهُم خارجونَ عنِ الحقِّ ناقضونَ لِلعهدِ"[2]، لا يَرقُبونَ في المؤمنينَ إلّا يُراعى، ولا ذِمَّةً تُحفَظُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَظۡهَرُواْ﴾: الظَّهرُ: الجارحةُ، وجمعُهُ: ظُهُورٌ، ويُستعارُ الظّهرُ لِمَن يُتَقوَّى بهِ، وظَهَرَ الشّيءُ أصلُهُ: أن يَحصُلَ شيءٌ على ظَهرِ الأرضِ، فَلا يَخفَى، ثمّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ بعدَ خَفاءٍ مُبصَرٍ بالبصرِ والبَصيرَةِ. ومنهُ: الظّهورُ بمعنى الظّفَرِ بالشّيءِ؛ لِبُروزِهِ. وظَهَرَ عليهِ: غَلَبَهُ. وظاهرَه: عاونَه. وظهرتُ على فُلانٍ: عَلَوْتُهُ وغلبتُهُ. وظهرتُ على السَّطحِ إذا صرتَ فوقَهُ. و﴿يَظۡهَرُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: يغلبُوكم أو يَظفَروا بكُم[3].

2) ﴿يَرۡقُبُواْ﴾: يدورُ معنى رَقَبَ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شيءٍ، ومِن ذلكَ الرّقيبُ، وهو الحَافِظُ، ورَقَبَ الشّيءَ يرقُبُه: انتظرَهُ ورَصَدَهُ،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، ونظم الدّرر: 8/384، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 259.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظهر)، وابن جرير، جامع البيان: 14/145، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/219.

وحرسَهُ وحفظَهُ، وهوَ مِن لازمِ العلوِّ والإشرافِ على الأماكنِ؛ لأنّ المُشرِفَ مُطَّلِعٌ على ما دونَهُ، ثمّ إنّهم كانُوا يَفعلون ذلك؛ أي: يَصعدُونَ على الأماكنِ المُرتفعةِ للاطّلاعِ، ويُسمُّونَها مَراقبَ. ورقبَ الإنسانَ يرقبُهُ هو أن ينتظرَهُ، ثمّ قِيلَ لكلِّ مَن حافظَ على شيءٍ وراعاهُ؛ راقبَهُ وارتقبَهُ، و﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: لا يَحفَظُوا ولا يُرَاعُوا[1].

3) ﴿إِلّٗا﴾: الإلُّ: كلُّ حالةٍ ظاهرةٍ مِن عهدٍ أو حِلْفٍ لا يُمكنُ إنكارُهُ، وأصلُهُ مِنَ اللَّمَعَانِ، فأُطلقَ الإلُّ على الحِلْفِ والعَهدِ؛ لأنَّ المُتحالِفينَ يُظهِرونَ حلفَهم ويُشيعونَهُ، فلا يُمكنُ إنكارُهُ، فهو بمَنزلةِ اللَّمَعَانِ في الظُّهورِ وعدمِ الخفاءِ، كما أطلقَ الإلُّ على القَرابةِ وعلى الجارِ؛ لِتنزيلِهما مَنزلةَ العهدِ في رعايتِهما والقيامِ بحقوقِهما، وذَهَبَ بعضُ اللُّغويّينَ إلى أنَّ حقيقةَ الإلِّ – على ما تُوجِبُهُ اللُّغةُ – تحديدُ الشَّيءِ، فَمِن ذَلِكَ الأَلَّةُ الحَربةُ لأنّها مُحَدَّدَةٌ، فالإلُّ يَخرُجُ في جَميعِ ما فُسِّرَ مِنَ العَهدِ والقَرابَةِ والجِوارِ على هذا، إذا قُلتَ في العَهدِ: بَينَهُما الإلُّ، فتأْويلُهُ أَنّهما قَد حَدَّدَا في أَخذِ العَهدِ، وإذا قُلتَ في الجِوَارِ: بَينَهُما إلٌّ، فتأْويلُهُ جِوَارٌ يُحَادُّ الإنسانَ، وإذا قُلتَهُ في القَرَابَةِ فتأْويلُهُ القَرابَةُ الَّتي تُحادُّ الإنسانَ، وتفسيرُ الإلِّ بأنَّهُ مِن أسماءِ اللهِ غيرُ صحيحٍ، كما صرَّحَ بهِ الرَّاغبُ وغيرُهُ، و﴿إِلّٗا﴾ هنا؛ بمعنى: العهدِ[2].

4) ﴿ذِمَّةٗ﴾: الذِّمَّةُ: كلُّ ما يَجبُ في المروءةِ أن يُحفظَ ويُحمَى مِنَ الأواصرِ؛ مِن صُحبةٍ وخُلُقٍ، وحُرمةٍ وخلَّةٍ، وجوارٍ وحِلفٍ، وأمانٍ وضمانٍ، فأُطلقَتِ الذِّمَّةُ على كلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ؛ لأنّهُ يكونُ عَقدًا في الضّميرِ، ومِن ذَلِكَ أهلُ الذِّمَّةِ؛ أي: أهلُ العهدِ والأمانِ، ويُقالُ: في ذمَّتي كذا؛ أي: ألتزمُ بهِ وأحفظُهُ، والذِّمَامُ: ما يُذَمُّ الرّجلُ على إضاعتِهِ ممّا يجبُ الالتزامُ بهِ وحفظُهُ ومُراعاتُهُ[3].

5) ﴿وَتَأۡبَىٰ﴾: الإباءُ: "مَصدرُ قولِكَ: أبى يَأبى بالفتحِ فيهما، مع خُلوِّهِ مِن حروفِ الحلقِ، وهو شاذٌّ؛ أي: امتنعَ، فهو (آبٍ) و(أبِيٌّ) و(أبَيانٌ) بفتحِ الباءِ، و(تأبّى) عليه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رقب)، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/319، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألل).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذمم)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

امتنعَ، وقولُهُم في تحيّةِ المُلوكِ في الجاهليّةِ: أبيتَ اللّعنَ؛ أي: أبيتَ أن تأتيَ مِنَ الأمورِ مَا تُلعَنُ عَليهِ"[1]، ويدورُ معنى كلمةِ (أبى) على الامتناعِ عنِ الشَّيءِ امتناعًا تامًّا كراهةً له، أو إحساسًا بالاستغناءِ عنهُ، وعدمِ الحاجةِ إليهِ، وأبى القلبُ: اشتدَّ امتناعُهُ، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ مِن غيرِ عكسٍ، والإباءُ: أن تعرضَ شيئًا مَطلوبًا، فيأبَى الّذي عُرِضَ عليه الشَّيءُ قبولَهُ، وتأبى قلوبُهُم؛ بمعنى: اشتدَّ امتناعُها عنِ الإذعانِ لمَا يبدو بألسنتِهِم كُرهًا لهُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما تَنطِقُ بهِ ألسنةُ الغادرينَ مِن ودادٍ، غيرُ ما تنطوي عليهِ صدورُهُم مِن أحقادٍ

كيفَ يكونُ لهؤلاءِ المُشركين الّذين نقضُوا عهدَهُم، أو لَمَنْ لا عهدَ له منهُم منكُم، عهدٌ وذِمَّةٌ؟ وهُم إنْ يغلبُوكُم أو يشعروا بالقوَّةِ عليكُم، لا يَحفظُوا فيكم عَهدًا ولا حُرمةً، يرضونَكُم بألسنتِهِم بالكلامِ الحلوِ، بأنَّهم يُوفونَ العهدَ ويَحفظونَهُ، ولكنَّ قلوبَهُم تأبَى الوفاءَ بما يَقولونَ، وتصديقَ ما يُبدونَهُ لكُم بألسنتِهِم، وأكثرُهُم مُتمرِّدونَ ناقضونَ للعهدِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ تكرارِ اسمِ الاستفهامِ ﴿كَيْفَ﴾:

إنكارُ دوامِ العهدِ مع المُشركينَ الّذين يُبطِنُونَ نيّةَ الغدرِ لِلمُؤمنينَ

في مَجيءِ اسمِ الاستفهامِ ﴿كَيْفَ﴾ - في قولِهِ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ - تكرارٌ لاستبعادِ ثباتِ المُشركينَ على العهدِ، والسِّرُّ في إعادةِ اسمِ الاستفهامِ لهُ وجهان؛ أحدُهُما: أنَّه لَمَّا ذكرَهُ أوَّلًا لاستبعادِ ثباتِ عهدِهِم عندَ اللّهِ، ولم يذكرْ إذ ذاكَ سببَ البعدِ؛ لاقتضاءِ المقامِ ذِكْرَ الغايةِ باستثناءِ الباقينَ على العهدِ، وطالَ الكلامُ.. أُعيدَت ﴿كَيْفَ﴾

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 12.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبى)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10.

(3) ابن جرير، جامع البيان، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/306، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.

تطريَةً لِلذّكرِ، ولتكونَ تمهيدًا لِذكرِ علَّةِ الإنكارِ والاستبعادِ، وليأخذَ بعضُ الكلامِ بُحْجَزةِ بعضٍ، فأفادَ التَّكرارُ تأكيدَ الإنكارِ والاستبعادِ والتّعجيبِ، معَ بيانِ العلَّةِ والسّببِ في انتظامِ للكلامِ، مع حُسنِ تأليفٍ بليغٍ[1]. والثّاني: الإشعارُ بأنَّ جملةَ الحالِ لها مَزيدُ تَعلُّقٍ بتَوَجُّهِ الإنكارِ على دوامِ العهدِ لِلمُشركينَ، حتّى كأنَّها مُستَقِلَّةٌ بالإنكارِ، لا مُجرَّدُ قيدٍ للأمرِ الّذي توجَّهَ إليه الإنكارُ ابتداءً، فَيَؤُولُ المعنى الحاصِلُ مِن هذا النَّظمِ إلى إنكارِ دوامِ العهدِ مع المُشركينَ في ذاتِهِ ابتداءً؛ لأنَّهم ليسُوا أهلًا لِذلكَ، وإلى إنكارِ دوامِهِ بالخُصُوصِ في هذه الحالةِ، وهي حالَةُ ما يُبطِنُونَهُ مِن نيَّةِ الغدرِ إنْ ظَهرُوا على المُسلمينَ، مِمَّا قامَت عَلَيهِ القَرائنُ والأَمَاراتُ، كما فعلَت هَوازِنُ عَقِبَ فَتحِ مكَّةَ[2].

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ[3]:

ذِكْـرُ القبيحِ على قدرِ حاجةِ المتلقّي لـهُ في الكلامِ

حُذِفَ المُستفهَمُ عنه في قولِهِ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾؛ لكونِهِ مَعلومًا ممّا تقدَّمَ في السِّياقِ، فالإيجازُ بحذفِهِ أليقُ، ولفائدةٍ أخرى؛ هي الإيذانُ بأنَّ النَّفسَ مُستَحضِرَةٌ له مُتَرَقِّبَةٌ لِورودِ ما يُوجِبُ استنكارَهُ مِنَ العللِ المُوجِبةِ لعدمِ ثباتِهم على العهدِ واستبعادِهِ، وأصلُ الكلامِ: (كيفَ يكونُ لهُم عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ؟!)، وفي هذا الحذفِ مِنَ الفخامةِ ما لا توجدُ لو ذُكِرَ المحذوفُ[4]، ومِن أسرارِ هذا الحذفِ ضيقُ المقامِ مِنَ المُشركينَ وخياناتِهم؛ تقبيحًا لهُم، وصَونًا لِلكلامِ عن تَكرارِ ذكرِهِم.

(1) السّكندريّ، الانتصاف لما تضمّنه الكشّاف: 2/249.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/123.

(3) "يشيعُ الأسلوبُ المرفوضُ بينَ المُعاصرين، وهو ما ظاهرُهُ خروجُ أداةِ الاستفهامِ عن صدارتِها. وقد أجازَ مَجمَعُ اللّغةِ المصريّ - في دورته الحاديةِ والخمسين - هذا الاستعمال، على أنّ اسمَ الاستفهامِ وقعَ صدرًا في جملتِهِ الّتي حُذِفَ ركنها، أو حُذِفت برمَّتها، وقد وردَ لهذا الاستعمال نظائرُ، منها قولُهُ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التّوبة: 8]". يُنظر: أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: 1/95.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/433، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

دلالةُ الواو على الحالِ في ﴿وَإِن﴾:

ثباتُ المُشركينَ على حالةٍ تُنافي الوفاءَ بالعهدِ

في قولِهِ: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أفادَتِ الواوُ الحاليَّةَ، بمعنى: إنكارِ أن يكونَ لهم عهدٌ واستبعادِهِ، والحالُ أنَّهم إنْ يَظهروا عليكُم لا يَرقُبوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّةً؛ أي: وهُم على حالةٍ تُنافي الوفاءَ بالعهدِ[1]، فدلَّتِ الحالُ على أنَّ سببَ الإنكارِ والاستبعادِ، هو أنَّهم إنْ يَظهروا عليكُم لا يَرقَبُوا فيكُم عهدًا ولا ذِمَّةً، ونكتةُ بيانِ العلَّةِ والسّببِ بأسلوبِ الحالِ الإشعارُ بثباتِ حالِهِم هذا، وعدمِ اقترانه بوقتِ إعطاءِ العهدِ.

مناسبةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾:

نُـــذرةُ غـلـبـةِ المُـشـركـيـنَ على المـؤمـنـيـن، إنْ كانوا على وصفِ الإيمانِ

لمّا كانَت أداةُ الشّرطِ (إنْ) تفيدُ عدمَ الجزمِ بوقوعِ الشّرطِ، وكانَ الحكمُ النّادرُ الوقوع مَوقعًا لـ(إنْ) آذنَ الكلامُ - في قولِهِ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ - بندرةِ غلبةِ المُشركينَ على المؤمنينَ، إنْ كانوا على وصفِ الإيمانِ، ولهذا كانَ الأقضى لحقِّ البلاغةِ هنا أن يكونَ الفعلُ ﴿يَظْهَرُواْ﴾ بلفظِ المضارعِ؛ لأنّهُ غيرُ مُتحقِّقٍ في الواقعِ[2].

دلالةُ الفعلِ المُقدَّرِ بعدَ ﴿كَيْفَ﴾:

المُشركونَ لا عهدَ لـهـم، ومَـن لا عهدَ لهُ لا أمانَ لهُ

بَعدَ أداةِ الاستفهامِ الحاليّةِ ﴿كَيْفَ﴾ - في قولِهِ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ - فعلٌ مُقدَّرٌ، تقديره: (كيفَ يكونُ لهم عهدٌ، وإنْ يَظهَرُوا عَليكُم لا يَرقُبُوا)، والمعنى الإعرابيُّ والدّلاليُّ يحدّدُهما الفعلُ المقدَّرُ بعدَ كيفَ، وفي ﴿كَيْفَ﴾ هنا تأكيدٌ للاستبعادِ الّذي في الأولَى[3]، ومدارُ المعنى على أنّ احتمالَ ظهورِهِم بمعنى انتصارِهِم وتمكُّنِهِم سوف يكونُ وَبالًا على المُسلمينَ، ومردُّ ذلك إلى أنّهم لا عهدَ لَهُم، ولا أمانَ لمواثيقِهِم،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/250، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/377، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/17.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

فَهُم لا يَرْجُونها إلّا في حالةِ ضعفِهم، فإذا مالَت لهم الكفّةُ نسُوا عهدَهُم، وانقلبُوا يفتكونَ بالمُسلمينَ، فيصبحونَ وحوشًا كاسرةً، لا يَرقبونَ في مُؤمنٍ إلًّا ولا ذِمَّةً.

دلالةُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿يَظْهَرُواْ﴾:

التّعبيرُ بالضّميرِ لـلإيـذانِ بـأنَّ المرادَ الذّواتُ مع أحوالِهم الّتي ذُكِرَت

لمّا كانَ الضّميرُ في ﴿يَظْهَرُواْ﴾ عائدًا إلى ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ في الآيةِ المُتقدِّمةِ دلَّ على أنَّ الكلامَ يجري فيهم، وإنّما جاءَ بصيغةِ الضّميرِ، ولم يذكرِ الاسمَ الظّاهرَ؛ للإيذانِ بأنَّ المذكورينَ هُم أنفسُهُم الّذين وَقَعَ الإنكارُ على أن يكونَ لهم عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ، فجاءَ الضّميرُ إيجازًا في الكلامِ؛ لبيانِ أنَّ المُرادَ هُمُ المُشركونَ بأوصافِهِم وأحوالِهِم الّتي ذُكِرَت.

بلاغةُ قولِهِ: ﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾:

الغالبُ ظاهرٌ مُستقوٍ، والمغلوبُ يُخفي نفسَهُ ونقصانَهُ

يحتملُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿يَظْهَرُواْ﴾ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً؛ إذ شُبِّهَتِ الغلبةُ بالظّهر؛ لأنّه ممّا يُتقوَّى به؛ ليفيدَ أنَّ غلبتَهُم على مَعنى التَّقوِّي والاقتدارِ، أو يُقالُ: شُبِّه فيها الاستعلاءُ المعنويُّ بالاستعلاءِ الحسّيِّ، بجامعِ السّيطرةِ والقهرِ في كلٍّ منهُما مع مُراعاةِ جوابِ الشّرطِ، كما يُحتملُ أن يكونَ كنايةً، وبيانُهُ: أنَّ مَن غَلَبَ غيرَهُ حَصَلَت له صِفةُ كَمالٍ، ومَن كانَ كذلك أظهرَ نفسَهُ، ومنهُ صارَ المغلوبُ كالنّاقصِ، والنّاقصُ لا يُظهرُ نفسَهُ، ويُخفي نقصانَهُ، فَصَارَ الظُّهُورُ كنايةً لِلغلَبةِ؛ لِكونِهِ مِن لوازمِها، أو يُقالُ: مِن شأنِ الغالبِ الاستعلاءُ على المغلوبِ، ومَن عَلَا شيئًا مَلَكَهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بشبهِ الجملةِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

شرطُ الظّهورِ على المؤمنينَ مَدعاةٌ للتّنكيلِ بهِم في كلّ حين

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِهِ: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أنَّ المرادَ: إنْ تمكَّنوا تمكُّنَ ظهورٍ وغلبةٍ، بحيث تكونُ الغلبةُ مُستوعبةً جميعَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/532، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/435، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

المُسلمينَ، ومعنى: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾: يغلبوا عليكُم ويَظفروا بكُم، ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؛ يعني: لا يحفظوا فيكُم قرابةً ولا عهدًا. وقولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ هنا تفيدُ دورانَ الدّولابِ؛ لتكونَ الغلبةُ لهؤلاءِ الغلاظِ الشّدادِ، الّذين لا يَحفظونَ عهدًا، ولا يُراعونَ قَرابةً ولا إحسانًا ولا ميثاقًا.

نكتةُ مجيءِ الجزاءِ بلفظِ: ﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾:

تعظيمُ أمرِ المحافظةِ على (الإلِّ والذِّمَّةِ)؛ لعلوِّ شأنِهما وارتفاعِ مَنزلتِهما

لمّا كانَ الظّهورُ بمعنى الظّفرِ بالشّيءِ وعلوِّهِ عليه، على وجهِ الغلبةِ - ومنه قولُهُم: ظهرتُ على السّطحِ إذا صرتَ فوقَهُ - وكان ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ في سياقِ الشّرطِ، ناسبَهُ أن يأتيَ بلفظِ ﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ في قولِهِ: ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؛ لما يُلازمُ لفظَ الرّقوبِ مِن مَعنى العلوِّ والإشرافِ بارتفاعٍ؛ ليُفيدَ أنّ المُشركينَ في حالِ ظهورِهم وعُلوِّهم لا يُراعون إلًّا ولا ذِمَّةً، وفي التّعبيرِ إشعارٌ بتعظيمِ أمرِ المحافظةِ على الإلِّ والذِّمَّةِ؛ لعلوِّ شأنِهما وارتفاعِ مَنزلتِهما عندَ جميعِ النّاسِ؛ لاقترانِ التّعبيرِ عنهما بلفظِ الظُّهورِ والرّقوبِ.

فائدةُ التّقديمِ في قولِهِ: ﴿فِيكُمْ﴾:

الكلامُ بصيغةِ الخطابِ له مِنَ التّأثيرِ في المتلقّي ما ليسَ في الغَيْبةِ

لمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيكُمْ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿إِلًّا﴾ دلَّ على حصرِ نفيِ رقابتِهم في المؤمنينَ، وأنَّهُم هُمُ المعنيّونَ بالأمرِ دونَ غيرِهم؛ إشعارًا بعظيمِ ضغينتِهم وعداوتِهم لَهُم، وفي مَجيءِ ضميرِ المُخاطبةِ العائدِ إلى المؤمنينَ تنبيهٌ لِشدَّةِ عَداوةِ المُشركينَ النّاكثينَ لهم، فإنَّ الكلامَ على سبيلِ المُخاطبةِ لهُ مِنَ التّأثيرِ في المتلقّي ما ليسَ في الغَيْبةِ.

دلالةُ مجيءِ ﴿إِلًّا﴾ و﴿ذِمَّةً﴾ نكرتين:

لمّا جاءَ اللّفظان نَكرتين في سياقِ النّفي أفادَ المعنى عمومَ نفي مُراقبتِهم الإلَّ والذِّمّةَ؛ أي: سواءٌ كانَ كلُّ واحدٍ منهما كبيرًا أو

صغيرًا[1]، واعتبارُ مُراعاةِ الإلِّ والذِّمّةِ "يعني: أنّ وُجُوبَ مُراعاةِ حقوقِ العهدِ على كُلٍّ مِنَ المُتعاهِدَينِ مَشروطٌ بمُراعاةِ الآخَرِ لها، فإذا لم يُراعِها المُشركونَ فكيف يُطلَبُ من المؤمنين أن يُراعوها؟!على مِنوالِ قولِ مَن قالَ:

عَلَامَ تُقبَلُ مِنهُم فِديَةٌ وَهُمُ *** لَا فِضَّةً قَبِلُوا مِنّا ولا ذَهَبَا"[2].

تقبيحُ حالِ المُشركينَ الّذين لا يُراعونَ أيَّ عهدٍ أو ذِمَّةٍ

دلالةُ العطفِ وتكرارِ ﴿لَا﴾:

لمّا كانَ العطفُ – في قولِه: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ – مُفيدًا التّشريكَ في الحُكمِ، وكانَتِ الواوُ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفين مع تكرارِ ﴿لَا﴾ كانَ الكلامُ على تقديرِ تَكرارِ الفعلِ؛ أي: لا يرقبوا فيكُم إلًّا، ولا يرقبوا فيكم ذِمَّةً؛ ليفيدَ العطفُ مع تَكرارِ (لَا) نفيَ رقابتِهم الإلَّ والذِّمّةَ، سواءً كانا مُجتمعَين أو مُنفردَين مع تأكيدِ نفيِ رقابتِهم وتقريرِها.

نفيُ مُراعاةِ المُشركينَ الحِلفَ والعهدَ سواء كانا مُجتمعَين أو مُنفردَين

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾:

لمّا أفادَت جملةُ الحالِ – في قولِه: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ – أنّهم إنْ يَظفروا بكُم لا يُراعوا فيكم حِلفًا ولا عهدًا، كانَ لازمُهُ أنَّ مَن حالُهُم هذه لا يَثبتونَ على عهدٍ، وهذا هو السَّببُ المُوجِبُ للإنكارِ والاستبعادِ والتَّعجيبِ[3]، وذكرُ السَّببِ بطريقِ الكنايةِ فيه معنى الاستدلالِ، وإقامةِ الحُجّةِ، فيكونُ أدعى لامتثالِ المُؤمنينَ واقتناعِهم.

مَنْ لا يُراعِ حِلفًا ولا عهدًا لا يثبتْ على عهدٍ، ولا يُؤمَنُ له جانبٌ

اختلافُ العلماءِ في معنى (الإلّ):

جاءَ الكلامُ آخذًا بعضُه بحُجَزِ بعضٍ، وقد تساءلَ السّياقُ عن بيانِ حالِ المُشركينَ، وما تَتلظَّى به قلوبُهُم، وما يُنبِئُ به الحالُ عمّا

اللّفظُ القرآنيُّ لا تنفكُّ عنهُ الدّلالةُ في البيانِ المُعجِزِ الأخّاذِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/384.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/163.

يُخالِفُ المقال، وقد بَسَطَ العلماءُ القولَ في معنى (الإلّ)، والإلُّ هذا: القرابةُ، وهو قولُ ابنِ عبّاسٍ، ومنهُ: العهدُ، ومنهُ: الأنينُ في الدُّعاءِ مع البُكاءِ، وخَريرِ الماءِ، والطَّعنُ، ومنهُ قولُ أبي بكر رضي الله عنه: إنّ هذا - أي: كلامَ مُسَيلِمةَ - مَا يَخرُجُ مِن إلّ؛ أي: مِن إلهٍ، وفي إلِّ اللّهِ؛ أي: قُدرتِهِ وإلَهيَّتِهِ[1]، وقالَ آخرون: إنّ الإلَّ هو الجؤارُ، وهو رفعُ الصّوتِ عندَ التّحالفِ، وذلك أنّهُم كانُوا إذا تحالَفُوا جَأَرُوا بذلك جُؤارًا. وقالَ الزّجّاج: الإلُّ عندي على ما تُوجِبُهُ اللّغةُ يدورُ على معنى الحِدّةِ، ومنهُ: الأَلّةُ لِلحربةِ، ومنه: أُذُنٌ مُؤَلَّلةٌ؛ أي: مُحدَّدةٌ[2]، وفي المعنى" استبعادٌ لأن يَبقى المُشركون على عهدٍ بينَهُم وبينَ المُسلمينَ، وإنْ كانَت بينَهم وبينَ المُشركين قرابةُ نسبٍ أو عهودٌ مُوثَّقةٌ، والمُستفهَمُ عنه هنا مَحذوفٌ؛ لدلالةِ الحالِ عليه، وهو: كيفَ يحفظونَ لكم عهدًا، وهُم عداوةٌ تمتلئُ بها صدورُهُم بغضةً وشنانًا لَكُم، حيثُ لا يَجدونَ شِفاءً لِمَا في صدورِهِم مِن هذا الدّاءِ إلّا أن يَأخذوكُم بالبأساءِ والضّرّاءِ؟"[3].

براعةُ الاستئنافِ البيانيِّ في ﴿يُرْضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ ذلك مَظنَّةً لأن يُقالَ: قد أكَّدُوا لنا الأيمانَ، وأوثقوا العهودَ، فلمَ لا نُعطيهِم العهدَ؟ قال مُعلِّلًا ببيانِ حالِهم المنافيةِ لثباتِهم على العهدِ، المؤدِّيةِ إلى عدمِ مُراقبتِهم عندَ الظَّفرِ، ومُجيبًا لِمَن استبعدَهُ: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾، فجاءَ الاستئنافُ لبيانِ حالةِ الخداعِ الّذي هُم عليهِ.

إثـارةُ الـسُّـؤالِ أدعى إلى تثبيتِ المعنى والإقـرارِ بِهِ

بلاغةُ الكنايةِ:

في الاستئنافِ - في قولِهِ تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ - كنايةٌ بذكرِ المَلزومِ وإرادةِ اللّازمِ، وهو تحذيرُ المؤمنينَ

تنبيهُ المؤمنينَ إلى أسـالـيـبِ خداعِ الكافرينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/59.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/708.

وتنبيهُهُم إلى ألّا يُصدِّقُوا الصُّورةَ الّتي يرونَها أمامَهُم مِنَ المُشركينَ؛ لأنّهم يُحاولونَ خِداعَ المُؤمنينَ بالقولِ الحَسنِ، والوَجهِ البشوشِ، والألفاظِ الحلوةِ النَّاعمةِ، لكنَّ قلوبَهُم تأبَى هذا العملَ بما أبدَتهُ ألسنتُهُم وتنكرُهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاستئنافِ في: ﴿يُرْضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ تَعليقُ عدمِ رعايةِ المُشركينَ العهدَ بالظَّفرِ مُوهِمًا للرِّعايةِ عندَ عَدَمِهِ كَشَفَ عن حقيقةِ شؤونِهِم الجليَّةِ والخفيَّةِ بطريقِ الاستئنافِ في قوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾، وبيَّنَ أنَّهُم في حالةِ العَجزِ أيضًا ليسُوا مِنَ الوفاءِ في شيءٍ، وأنَّ مَا يُظهرونَهُ مُداهَنَةٌ لا مُهادَنَةٌ، فإذا كانُوا في حالِ العَجزِ عن غلبةِ المُسلمينَ مُخادِعينَ فحالُهم عندَ ظهورِهم على المسلمينَ أدعى لِلخداعِ والغدرِ، فيلزمُ منه استبعادُ ثباتِهم على العهدِ[2].

إذا كانَ الكفَّارُ في حالِ الانكسارِ مُخادِعينَ فحالُ ظهورِهِم أدعى لِلخديعةِ

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

جاءَ الكلامُ على طريق المجاز المُرسَلِ في قولِهِ: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بذكرِ السَّببِ وهو الفمُ، وإرادةِ المُسبَّبِ وهو القولُ الخارجُ منهُ، ويحتملُ أنْ يكونَ مِن ذكرِ المَحلِّ وإرادةِ الحالِّ، ونكتةُ التّعبيرِ بالمجازِ المُرسَلِ: أنَّ التّعبيرَ بالأفواهِ يدُلُّ على عِظَمِ الفمِ وسَعَتِهِ، ففيه إشارةٌ إلى كثرةِ ثرثرتِهِم بالكلامِ مع تفخيمِهِ وتضخيمِهِ، فكأنَّهُم يتكلَّمُونَ بملءِ أفواهِهِم؛ لتزويقِ الكلامِ وتنميقِهِ وتحسينِهِ وتزيينِهِ؛ ليُرضُوا المؤمنينَ بحلاوتِهِ، فيخدعوهم.

مِن أساليبِ الخداعِ الماكرةِ تزويقُ الكلامِ بالعباراتِ الآسرةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يُرْضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ الرّضا خلافَ السُّخطِ، وكانَ بمعنى تشبُّعِ النَّفسِ

إرضاءُ الكافرينَ الغادرينَ لِلمُؤمنينَ لكي لا يَنتبهوا إلى خداعِهِم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/150، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4904.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

وامتلائِها بَلالًا ورِقَّةً، نحَو الّذي يُرضَى عنهُ[1] عُبِّرَ بـ ﴿يُرْضُونَكُم﴾؛ للإشعارِ بأنَّهم يَجعلونَ المُؤمنينَ لا يَسخطونَ عليهم، ولا يَحذرونَ منهُم، ولا يَنتبهُونَ لِمَكرِهِم وخداعِهِم؛ والمعنى: يرضُونَكُم عنهُم وعن أفعالِهِم وأحوالِهِم، فيلزمُ منهُ عدمُ التَّحرُّزِ مِنهُم.

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ في ﴿يُرْضُونَكُم﴾:

مـحـاولـةُ الـكـافـريـنَ الغادرينَ إرضاءَ المؤمنينَ في كلّ شيءٍ، مع إبايةِ قلوبِهِم لهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يحتملُ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿يُرْضُونَكُم﴾ أن يكونَ بتقديرِ: يُرضونَكُم بأفواهِهِم في الوفاءِ، فيكون مقابلُهُ: وتأبَى قلوبُهُم الوفاءَ، ومفهومُهُ: تأبَى قلوبُهُم إلَّا الغدرَ، أو: يُرضُونَكُم بأفواهِهِم في الطّاعةِ، وتأبَى قلوبُهُم الطّاعةَ، ومفهومُهُ: تأبَى إلّا المعصيَةَ، أو: يُرضُونَكُم بأفواهِهِم في الوعدِ بالإيمانِ، وتأبَى قلوبُهُم الوعدَ، ومفهومُهُ: تأبَى إلّا الشِّركَ[2]، فلمّا حُذِفَ المُتعلَّقُ أفادَ عمومَ المعنى؛ ليشملَ المذكورَ وغيرَه ممّا هو في معناه.

مناسبةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾:

تـنـاقـضُ الـكـافـريـنَ بينَ إرضـاءِ المؤمنينَ بـكـلامِـهـم، وإبايتِهِ بقلوبِهِم

العطفُ - في قولِهِ: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ - على معنى الجمعِ بينَ المُتعاطِفينِ على سبيلِ ذكرِ الشَّيءِ ونقيضِهِ، فهُم يَجمعونَ بينَ الفعلِ المحسوسِ المَرئيِّ - وهو إرضاءُ المؤمنينَ بحلوِ الكلامِ - والفعلِ القلبيِّ غيرِ المرئيِّ على سبيلِ المناقضةِ؛ إيذانًا بطريقةِ خداعِهِم ومَكرِهِم.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾:

يأبى الكافرونَ، وتأبى قلوبُهُم إرضاءَ المؤمنينَ

إسنادُ الإبايةِ إلى القلوبِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، فقلوبُهم لمَّا نَوَتِ الغدرَ شُبِّهَتْ بمَن يُطلَبُ منه شيءٌ فَيَأبَى[3]، ويحتملُ أن يكونَ مَجازًا عقليًّا، علاقتُهُ المكانيّةُ، والتّقديرُ: يأبونَ بقلوبِهِم؛ ليكونَ

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضي).
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/343، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

نظيرَ ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، والسِّرُّ البلاغيُّ في إسنادِ الإباية إلى قلوبِهِم دونَ ذواتِهِم هو الإشعارُ بالغلِّ والحقدِ والأضغانِ الّتي في قلوبِهِم على المُؤمنينَ، وللإشارةِ إلى أنَّ قلوبَهُم امتلأَتْ حِقدًا، حتَّى كأنّها صارَت لفرطِ ما فيها مِن مَكرٍ عدوًّا آخرَ لِلمؤمنينَ يتربَّصُ بهم الدَّوائرَ، كما أنَّه جارٍ على أسلوبِ القرآنِ في مُقابلةِ الأفواهِ بالقلوبِ[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

تقديرُ الكلامِ في قولِهِ: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: يُرضُونَكم بقولٍ مِن أفواهِهِم، فحُذِفَ القولُ وحرفُ الجرِّ، وفائدةُ الحذفِ الإيجازُ، والإشعارُ بأنَّ قولَهُم كانَ بأفواهِهِم كلِّها؛ حرصًا منهُم على خداعِ المؤمنينَ وإرضائِهِم بحلوِ الكلامِ النّاعمِ المنمَّقِ المزيَّنِ.

الجمعُ بينَ بلاغةِ الإيجازِ ودقَّةِ المعنى

براعةُ تعليقِ الإرضاءِ بقولِهِ: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾:

لم يَقُلْ: (يُرضُونَكُم بقولِهِم أو بكلامِهِم) مثلًا، بل نسبَ الإرضاءَ إلى الأفواهِ؛ للإيذانِ بأنّ كلامَهُم مُجرَّدُ ألفاظٍ يَتفوَّهُونَ بها مِن غيرِ أن يكونَ لها مِصداقٌ في قلوبِهِم، وكلُّ مَوضعٍ علّقَ اللّهُ تعالى فيه حُكمَ القولِ بالفَمِ هو إشارةٌ إلى الكذبِ والتَّكبُّرِ عنِ الحقِّ، وتنبيهٌ أنّ الاعتقادَ لا يطابقُهُ، ولهذا قالَ اللّهُ تعالى عن يومِ القيامةِ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: 65]، فلمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ دلَّ على أنَّ ما في قلوبِهِم يخالِفُهُ، ولمّا قالَ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ كانَ بمَنزلةِ التّصريحِ بما عَلِمَ ضمنًا، فيكون تأكيدًا وتقريرًا لِلمعنى، وإظهارًا لِمَا يَحرصونَ عليهِ من إخفاءِ ما في قلوبِهِم؛ ليكونَ التَّصريحُ بإباءِ قلوبِهِم ومُخالفَتِها لِمَا يقولونَهُ بأفواهِهِم زيادةً في توبيخِهِم وفضحِهِم[2].

تعليقُ حُكمِ القولِ بالفَمِ إشارةٌ إلى الكذبِ؛ لأنّ الاعتقادَ لا يطابقُهُ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

(2) الرّاغب، المفردات: (فوه)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَتَأْبَىٰ﴾:

إباية الكافرين بقلوبهم هو باختيارهم، مع وجود الدّاعي إلى الامتثال

عُبِّرَ بلفظِ ﴿وَتَأْبَىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾؛ للإشعارِ بشدّةِ امتناعِ قلوبِهم عن قَبولِ ما يَقولُونَه بأفواهِهم أَنَفَةً وكراهةً له، وللإشعارِ بأنَّ امتناعَهُم كانَ باختيارِهم مَعَ وجودِ القُدرةِ على الامتثالِ والدّاعي إليه، فيكونُ تأكيدًا لِمَا دلَّ عليه السِّياقُ مِن أنَّ ما يَقولونَهُ بأفواهِهم كَذِبٌ وخِداعٌ لِلمُؤمِنين[1].

بلاغةُ الحذفِ في قولِهِ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾:

مِن جمالِ البيانِ القرآنيِّ حذفُ بعضِ عناصرِ السّياقِ لغرضٍ

حُذِفَ المفعولُ في قولِهِ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لإفادةِ العُمومِ، والمعنى: تأبَى قلوبُهُم ما تتفوَّهُ به أفواهُهُم ممّا يُرضون به المؤمنينَ، وتأبَى قلوبُهم الاعتقادَ بما تَفوَّهوا به، والإذعانَ له والعملَ به، وتأبَى قلوبُهُم الإيمانَ والطّاعةَ، ويجري في تقديرِ المحذوفِ كلُّ ما هو في هذا المعنى، فكانَ الحذفُ أولى؛ لعمومِ المعنى وللإيجازِ[2].

دلالةُ المضارعِ في قولِهِ: ﴿يُرْضُونَكُم﴾ ﴿وَتَأْبَىٰ﴾:

الإيذانُ باستمرارِ الغادرينَ بالخداعِ، وأنَّ غدرَهُم قد يحصُلُ في أيِّ لحظةٍ

عبّر بصيغةِ المضارعِ للإيذانِ باستمرارِهم على الجمعِ بينَ إرضاءِ المؤمنين باللّسانِ الحلوِ المنمَّقِ، وبين إباءِ قلوبِهم لِمَا يَقولونَهُ، وأنَّ هذا الأمرَ يتجدَّدُ عندَهم حالًا فحالًا، وفيه تصويرٌ للحالةِ أيضًا؛ إشعارًا ببشاعةِ فعلِهم، وبأنَّ غدرَهُم قد يحصُلُ في أيِّ لحظةٍ.

بديعُ المُقابلةِ بينَ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ و﴿قُلُوبُهُمْ﴾:

الاكتفاءُ باللّسانِ للتّعبيرِ عمّا في القلبِ، فإذا تخالَفَا جُمِعَ بينَهُما

لمّا كانَ اللّسانُ مُعبِّرًا عمّا في القلبِ استُغني بالقولِ عن ذكرِ ما في القلبِ، فإذا تخالَفَا جمعَ بينَهُما على سبيلِ المُقابلةِ، فيكون القولُ مُختصًّا بالأفواهِ، من غيرِ أن يكونَ له مِصداقٌ في القلبِ، فهُم "﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: يقولونَ بألسنتِهم ما فيه مُجامَلَةٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبى).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وابن عادل، اللّباب: 10/29، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

ومُحاسَنةٌ لَكُم، طَلَبًا لِمَرضاتِكُم، وتَطييب قلوبِكُم، و﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تأبَى ذلكَ وتُخالِفُهُ، وتَوَدُّ مَا فيهِ مَساءَتُكم ومَضَرَّتُكم، كَما يَفعَلُهُ أهلُ النّفاقِ وذَوُو الوَجهَينِ"[1].

دلالةُ الواو على الحاليّةِ في ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾:

دقّةُ القرآنِ في توصيفِ نوازعِ النّفوسِ، ودواخلِ الفِسقِ والهَوى

لمّا كانَتِ الواو حاليَّةً أفادَت جملةُ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أنَّها في مَوضِعِ الحالِ مِن واو الجماعةِ في ﴿يُرْضُونَكُم﴾، والمقصودُ المبالغةُ في الذَّمِّ بأنَّ أكثَرَهم مَوصوفٌ بالفسقِ في حالِ إرضائِكُم بأفواهِهِم[2]، وقد "حَكَمَ عَلَيهم بالفسقِ، وهو التَّمرُّدُ والتَّجَرِّي، والخُرُوجُ عنِ الحقِّ؛ لِنقضِهِم العُهودَ، وعَدمِ مُراعاتِهِم لِلعُقُودِ"[3].

سببُ إيثارِ وصفِ الكفّارِ بالفِسقِ:

الفِسقُ أقبحُ ما يُوصَفُ بهِ المُتمرِّدونَ عن مَنهجِ اللهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إنْ قيلَ: الموصوفونَ بهذهِ الصِّفةِ كُفَّارٌ، والكفرُ أقبَحُ وأخبَثُ مِنَ الفسقِ، فكيفَ يحسُنُ وصفُهُم بالفسقِ في مَعرِضِ المُبالَغةِ في الذَّمِّ؟! فالجوابُ: أنَّ الكافرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِهِ، وقد يكونُ فَاسِقًا خبيثَ النَّفسِ في دينِهِ، فالمُرادُ ها هنا أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ الّذينَ مِن عادتِهِم نَقضُ العُهُودِ أكثَرُهُم فاسقونَ في دينِهِم وعندَ أقوامِهِم، وذلكَ يُوجِبُ المُبالَغةَ في الذَّمِّ[4].

سببُ الحُكمِ بالفِسقِ على الأكثريَّةِ:

الفاسقونَ جمعُوا المَذمَّةَ الدّينيَّةَ والعُرفيَّةَ

في قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إنْ قيلَ: هَذا الكلامُ في المُشرِكينَ وهُم كُلُّهُم فاسِقُونَ، فَكَيفَ قَالَ: وأَكثَرُهُم فاسِقُونَ؟! قيلَ: لمّا كانَ السّياقُ في بيانِ الوفاءِ بالعهدِ ونقضِهِ أَرَادَ بالفسقِ هاهنا نَقضَ العهدِ، فقد كَانَ في المُشرِكينَ مَن وَفَّى بِعَهدِهِ، وأَكثَرُهُم نَقَضُوا،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/388.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/388.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533.

فلهَذا قالَ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ نقضِ العهدِ، فيكون التّعبيرُ باللَّفظِ المُشتقِّ إيذانًا بأنَّ نقضَ العهدِ صارَ سجيَّةً لهم، أو يُقالُ: قد يكونُ الكافرُ مُحترزًا عنِ الكذبِ، ونقضِ العهدِ والمكرِ والخديعةِ، وقد يكونُ مَوصوفًا بذلك، ومثلُ هذا الشَّخصِ يكونُ مَذمومًا عندَ جميعِ النَّاسِ وفي جميعِ الأديانِ، فالمرادُ أنَّ أكثرَهُم مَوصوفونَ بهذهِ الصِّفاتِ المَذمومةِ لا جميعَهم، فإنَّ بعضَهُم يَتفادَى الغدرَ، ويتعفَّفُ عمّا يجرُّ إلى أُحدوثةِ السُّوءِ، فالفسقُ هنا الخروجُ عنِ الكمالِ العُرفيِّ بينَ النَّاسِ، وليسَ المرادُ به الخُرُوجَ عَن مَهيَعِ الدِّينِ؛ لأنَّ الخُرُوجَ عَنِ الدّينِ وصفٌ لجميعِهم لا لأكثرِهم، ولأنَّهُ قد عُرِفَ مِن وصفِهم بالكفرِ، فَجمعُوا المَذمَّةَ الدِّينيَّةَ والمَذمَّةَ العُرفيَّةَ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

الفِسقُ تمرُّدٌ سببُهُ اتّباعُ الشّهواتِ والرّكونُ إلى مُطلَقِ المَلَذَّاتِ

لمّا كانَ الفسقُ هوَ الخروجَ عنِ الطّاعةِ لأجلِ اتّباعِ الشّهواتِ، وكانَ فيه معنى التَّمرُّدِ كانَ الإخبارُ بهذا الوصفِ - في قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ - أنسبَ للسّياقِ، فهُم فاسِقُون خارجُونَ عنِ الطَّاعةِ؛ لأنَّ مُراعاةَ حقوقِ العهدِ مِن بابِ الطَّاعةِ، وهُم مُتمرِّدونَ ليسَت لَهُم مُرُوءَةٌ رادِعَةٌ، ولا عَقِيدَةٌ وَازِعَةٌ، ولا يَتَسَتَّرُونَ في الغَدرِ، وعدمِ مُراعاةِ العهدِ، كما يَتعاطَاهُ بعضُهم مِمَّن يَتَفادَى الغدرَ، ويَتَعَفَّفُ عمّا يَجُرُّ أُحدُوثَةَ السُّوءِ، كما أنَّ التّعبيرَ باللّفظِ المُشتَقِّ يُؤذِنُ بلُصُوقِ الوصفِ بِهِم، وأنَّهُ صارَ سجيَّةً لَهُم كما تَقدَّمَ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإلّ والذِّمَّة والعهد والميثاق واليَمين:

لمّا كانَ العطفُ على معنى المغايرةِ دَلَّ على أنَّ الإلَّ غيرُ الذِّمَّةِ،

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/320، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

لـلإلِّ والـذِّمَّـةِ مَـعـانٍ عـديـدةٌ، ولكـنَّهُـما أقـربُ الألـفـاظِ لـدلالـةِ الـسّـيـاقِ على المُرادِ

والفرقُ بينَهُما: أنَّ الإلَّ هو كلُّ حالةٍ ظاهرةٍ مِن عهدٍ أو حِلفٍ، لا يمكنُ إنكارُهُ، ويكونُ مُلزِمًا، وظاهرُ استعمالِهِ في القرآنِ الكريمِ، أنّه لا يكونُ إلّا فيما يَتعلَّقُ بهِ العهدُ مع اللّهِ، أو يكونُ حلفًا باللّهِ تعالى، وبهذا يكونُ أخصَّ من العهدِ، الّذي يكونُ مع اللّهِ أو مع النّاسِ، في أمورِ الحياةِ وشؤونِها، وذَهَبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ الإلَّ يُطلَقُ على الحِلفِ والعهدِ، ويُطلَقُ كذلكَ على النَّسبِ والقَرابةِ، وقد كانَت بينَ المُشركينِ وبينَ المُسلمينَ أنسابٌ وقَراباتٌ، فَيَصِحُّ أنْ يُرادَ في الآيةِ كِلا مَعنَيَيهِ. وأمّا الذِّمَّةُ فهي مِنَ الذَّمِّ؛ لأنَّ صاحبَهُ يُذَمُّ على إضاعتِهِ، والذِّمَّةُ كلُّ ما يَجِبُ في المروءةِ أنْ يُحفَظَ ويُحمَى مِنَ الأواصرِ، مِن صُحبةٍ وخُلُقٍ، وحُرمةٍ وخُلَّةٍ، وجِوارٍ وحلفٍ، وأمانٍ وضمانٍ، فأُطلِقَتِ الذِّمّةُ على كلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ؛ لأنّه يكونُ عقدًا في الضّميرِ، وَمِن ذَلِكَ أهلُ الذِّمَّةِ؛ أي: أهلُ العهدِ والأمانِ، ويُقالُ: في ذِمَّتي كذا؛ أي: ألتزِمُ به وأحفَظُهُ، فالعهدُ مَا يتَّفقُ رجلان أو فريقان مِنَ النّاسِ على التزامِهِ بينَهُما لِمصلحتِهِما المُشتركةِ، فإنْ أكَّدَاهُ ووثَّقاهُ بما يَقتضي زيادةَ العنايةِ بحفظِهِ، والوفاءِ به سُمِّيَ ميثاقًا؛ وهو مُشتَقٌّ مِنَ الوَثاقِ، وهو الحبلُ والقيدُ، فالميثاقُ عقدٌ مُؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، وإنْ أكَّداه باليمينِ خاصَّةً سُمِّيَ يَمينًا، وقد يُسمَّى بذلك لوضعِ كلٍّ مِنَ المُتعاقِدينِ يمينَهُ في يمينِ الآخرِ عندَ عقدِهِ، واليمينُ في الأصلِ اليدُ المقابلةُ لِلشِّمالِ، وذَهَبَ بعضُ اللّغويينَ إلى أنَّ الفرقَ بينَ العهدِ والميثاقِ أنَّ العهدَ يكونُ حالًا مِنَ المتعاهدَيْنِ، والميثاقَ يكونُ مِن أحدِهما[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57، والرّاغب، المفردات: (الإل، ذم)، ورضا، تفسير المنار: 10/167، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»